والأسئلة لن تنتهي، الأفكارُ لن تنتهي في مواجهة هذا الخَوف الأبديَّ الذي انبهَر أمام هذا المشهد المستمرّ منذُ عشرة أيَّام: الفَقد النهائيّ: تتلوهُ الصَدمة: يتلوه الانتظار. ووحدها الأصوات اللاعقلانيَّة، التي تعبِّر عن ما بداخلها بلا تفكير منطقي، بِلا حساباتٍ مؤجَّلة: مَن تقول بصوتٍ حزِينٍ وغاضب: لَو كانوا عندكَم فقط أخبِرونا وحدنا! ولَو أنَّكم تفعلون هذا لمصالحكم فقط أخبرونا أنَّهم أحياء. لأنَّ هذا الصَوت الحزين، لَم يفكِّر سوى بحياة الآخرين. ولَم يقتنع بكلِّ الروايات، ولَن يقتنع بكلِّ الروايات، سينتظر غصباً بيانَ النَّاطق الرسميِّ وسيَعرفُ مُسبقاً أنَّه يسمع كذباً لكنَّ الغريزة أقوى وتُضعفُ الإنسان.

«يجبُ علَينا أن نخرجَ جماعاتٍ لنبحث عنهم وإلّا دفعنا ثمنَ هذا من دمنا ودم أبنائنا من بعدنا». هذا حقيقي، هذا الشيءُ الوحيدُ الحقيقيُّ في هذه القضيَّة: أنَّ ثمناً أكبر سيُدفع من بعد، ليسَ فقط إن لَم نخرج جماعاتٍ لنبحث عنهم، ولَيس فقط إن لَم نجدهم، بَل إن لَم نرفض هذا المَنطق الأهوج الذي يسودُ في الضفَّة الغربيَّة منذُ سنين، وإن لَم نشكَّك بمنطقيَّة وبلا منطقيَّة، بدلائل وبدون دلائل، بمناسبة وبلا مناسبة: أن نشكَّك في أنَّ الحقيقة هي ما يُخبرهُ النِّظامُ عن الحقيقة.

الفصل الثالث

ولأنَّ «الإنسانُ يَعتاد كلَّ شيء»، كَما وصفه دوستويفسكي في إحدى رواياته، ولأنَّ العادَة هي العدوُّ الحقيقيّ للحريَّة وللحقيقة، ولأنَّ القضيَّة محيّرة ومتعبة للتفكير في تفاصيلها المتناقضة وفي رواياتها المختلفة، ولأنَّ الغياب إذا استمرَّ إلى الأبد قد يصبح مجرَّد التفكير فيه عبئاً على من امتلأت جيُوبهم بالأعباءِ، فإنَّ اعتياد هذا الغياب المفاجئ، هذا الاختفاء غير المفسَّر، هُو العدوُّ في هذه اللحظات. إنَّ نظرةً واحدة من النافذة، أو جلسةً عائليَّة اعتياديَّة، أو الذهاب إلى العمل والالتقاء مع الأصدقاء، بل حتَّى متابعة الأخبار عن جرائم الاستعمار الصهيوني، هذه الأمور كلُّها قد تدفع الإنسان عندما تعود قضية الاختفاء إلى ذهنه مرة واحدة أن يتساءل بدهشة: هل هذا حقيقيَّ حقاً؟

هل من الممكن أنّنا نَشهد تحوّلاً في نظام الخوف والمنع في الضفَّة الغربية؟ (أ ف ب)

ولأنَّه حقيقي، فهُو متعب، لأنّه مخالف لما نعرفه، ومخالف لما نعرف عن الممكن وعن غير الممكن. وماذا عن الوجه الآخر المحتمل للقضيَّة؟ إذا كان الشباب الثلاثة قد اختاروا الاختفاء واختاروا الغياب؟ ربَّما يكون هذا ممكناً، فإذا كان الوجه الأوَّل ممكناً فالآخر ممكن أيضاً. ولكن، حتَّى هذا الوجه يكشف لنا أموراً أخرى. ففي الغياب يتبدَّى الحاضر ضعيفاً وهشاً، مُعتاداً كأنَّه مكرور بلا نهاية، وعارياً من كلِّ ما قد علَّقناه عليه من ملابس وصور وأوصاف اخترعناها وبرَّرناها مع الوقت. لا بدَّ لهذا الغياب إذن، إن كان اختيارياً أو قسرياً، أن يخبرنا عن حاضرنا أكثر، أن يخبرنا كَم اعتدنا من الأشياء: الاستعمار الصهيوني، الاستبداد السلطوي، والأعباء اليوميَّة الثقيلة التي دخلت حياتنا وتسللت حتَّى قوَّضت أسسها وكبَّلت أيدينا معها. ولنسأل أنفسنا عندها: مَن هو الغائب حقاً؟ هُم الثلاثة أم نحنُ الذين كنَّا غائبين؟ وإذا كان غيابهم قسرياً: فلنسأل عندها: من المفقود حقاً؟ نحنُ أم هُم؟

ولا بدَّ من التعب والإرهاق عند التفكير بهذه الطريقة. ولا بدَّ للعقل أن يقول: فليرجعوا ولتنتهي هذه القضيَّة المرهقة، والمُرهقة لأنَّها كشفَت لنا أسباب النقص في حاضرنا الأعور، وكشفت إمَّا عن إرهابِ دَولةٍ أخطر مما تصوّرنا من قبل، أو عن عجزِها. وكشفت لنا أنَّنا مغرقون في عاداتنا الحياتية، مغرقون في اعتيادنا لكوننا مُستعمَرين، فالذي حقاً: «مِش معقول»، هُو الطريقة التي تمَّ تداول الأخبار فيها حَول مشاركة الكيان الصهيوني في البحث عن الشباب الثلاثة المفقودين، والذي «مش معقول» حقيقة، كيف صدَّق الكثيرون الاحتلال عندما قال إنَّهم غير معتقلين في سجونه.

في هذا المشهد الذي يختلط فيه العبث مع الحقيقة، وربَّما تكون الحقيقة أمامنا واضحةً كالشمس لكنَّنا ولنقص في قُدرتنا على توقَّع المُمكن، لا نراها. تبرزُ وجوه الشباب الثلاثة، أينَما كانوا الآن وكيفما كانوا، تبرزُ وجوههم لتحدِّق فينا طَويلاً وتسأل: «هَل نحنُ حقاً مفقودون؟ ولِماذا؟ وهل ستعتادون الغياب؟».

الفصل الرابع

في فصول الجحيم، لا بدَّ إذن من الانتهاء إلى القاع، ولا بدَّ من الانتهاءِ إلى السُّجون فِي وضح النَّهار، وأن يتسلَّم الجلَادُ ضحيَّتهُ الأخيرةُ وأن يكسِرَ عُنق الضحيَّة على الملأ دُون خجل. ربَّما لأنَّه ملّ من الاختفاء، وربَّما لأنَّ له حاجة لا يُخفيها عن أن يشدَّد حُضوره الأبديّ فِينا كسجَّان.

كان الإعلامُ، وما زالَ، القاضِي المُعاون الرئيسيّ في هذه القضيَّة، بقصدٍ أو بدون قصد، بتسيير أو بحريَّة. تلفيقُ التُّهم ليسَ جديداً. لكنَّ: مُتابعة ما تقولهُ السُّلطة الفلسطينيَّة، منذُ بداية القضيَّة وحتَى وُصولها إلى ما يُسمَّى «المحكمة»، ومتابعة هذه الأقوال والتصريحات على أنَّها مرة ثانية: «الحقيقة»! بعدما صدَّق الضحايا جلادهُم مراتٍ عديدةٍ، وحتَّى جلادَهُم الصهيونيَّ في مراتٍ كثيرة. هنا تُصبح المِش معقول: صراخاً حاداً بحجم السَّماء: هذا جُنون وفقط. الجلَّاد غيَّر جلدهُ مراتٍ عديدة، كالأفعى. وكَما كان لِزاماً علَينا أبداً، فهُو لزامٌ علَينا الآن أيضاً أن نكشِفَ الحقيقة لأنفسُنا ونقول: أنَّ مجموعة دَخيلة على القضيَّة الفلسطينيَّة تعذِّب المقاومين في وضح النَّهار، ولا أحد منَّا يحرِّك ساكناً، وما زلنا، وما زالَ الكثيرون منَّا، يصدِّقون ويصدِّقون. «كَم كُنتَ وحدكَ!»، ليس تماماً، بَل هي: «ولعلَّك باخعٌ نفسَكَ على آثارهم»، غَصباً عندما تَدفعُ الثمَنَ الذي سكتَّ عنهُ منذُ بداية فصول الجحيم وحتَّى بِداياتها العلنيَّة حتى الآن.

أولاً: سَلَبوك الضحيَّة في الخفاء، وثَانياً: جَعَلوك أحمق حينما صدَّقتهم، وثالثاً: جلَدُوا ضحيَّتك وعذَّبوها وأنتَ تعرفُ، ورابعاً: يسلِّمونها إلى الصهَاينة كما كانوا يفعلون دائماً. فإذن تَكونُ الكلماتُ الحقيقيَّة: «كَم أنتَ مفقودٌ يا ابنَ أمِّي».

* باحث فلسطيني

الإعلامي الأول لأميركا، لذا يبدو طبيعياً أن تتكشف أولى تراجعات القناة بإغلاق «الجزيرة أميركا» بعد أن انخفض عدد متابعيها إلى أقل من 20 ألفاً، وتسريح موظفيها الـ700، وما أُعلن عن نيّتها تقليص عدد موظفيها الـ5200 في كافة فروعها، ليستقر على حوالى الـ2000. وهو ما بدأته من حملة إلغاء عقود للمئات من موظفيها أو هي «تفنيشات» عارمة تقض مضاجع موظفيها، بما شكّل حالة أرق لا تستثني حتى مذيعيها ومخرجيها البارزين، خاصة مع «تفنيش» 300 موظف من المقيمين في الدوحة، ولعل لسان حالهم ما عبّرت عنه هويدا طه، الكاتبة ومخرجة البرامج الوثائقية في القناة عندما عبّرت عن لحظة «التفنيش» الصعبة هذه في مقال قالت فيه انها تلقت رسالة متقتضبة تقول «يؤسفنا ابلاغكم بقرار انهاء خدماتك». وقالت ان هذه العبارة كانت خلاصة «ورقة التفنيش» بعد عمل استمر 19 عاماً، وقالت انها تلقت اتصالاً من «ادارة التفنيش»، حسب وصفها، يبلغها ايضاً بمنعها من دخول مقر عملها في المحطة.

لا يبدو حال «الجزيرة» في ضوء قوانين علم الاجتماع طبيعياً بتاتاً، حتى لو أمكنها استرداد عافيتها، وهو مستبعد جداً، فإن نواميس التاريخ وسننه لا تحابي أحداً حتى لو امتلك المال والتقنية والتخصص، فالكهولة المبكرة لا تقع من السماء جزافاً، إنها حصاد ما جناه اللسان، خاصة أن هذا اللسان قد أخذ في تلابيب حلاوته مصير ملايين الأطفال العرب وقد حسبوه يوزع الشوكولا بطعم الحرية، فإذا هو الموت الزؤام، والموت إذا وقع وعمّ فإنه يأخذ في سكراته الجاني والضحية.

* كاتب فلسطيني

في «يوم الأسير»... قاطعوا G4S

أيّها الكرام،

في مثل هذا اليوم من كلّ عام، يقف مئاتٌ من أحرار هذا العالم ليُحَيّوا قممَ مجدنا الفلسطينيّ والعربيّ، أسرانا وأسيراتنا في سجون الاحتلال الإسرائيليّ، الذين يواصلون نضالَهم العنيدَ من خلف الأسوار. قليلٌ من المعلومات قد يعطينا فكرةً عن حجم المعاناة التي يقاسيها أسرانا من أجل حريتِنا نحن، وحريةِ أوطاننا.

أثناء التحقيق، قد يتعرّض الأسيرُ لـ«الشبْح» ما بين عشرِ ساعاتٍ إلى عشرين ساعةً متواصلة. والشبْح هو ربطُ رجلَي الأسير بقائمتَي الكرسي، وربطُ يديه بخلفيّة هذا الكرسيّ ـ وهذا يؤدّي في حالاتٍ كثيرة إلى تمزقٍ في الكتفين واليدين، وإلى فقدان الإحساس بالرُّسْغَين. ومن أساليب التعذيب والمعاناة الموثّقة: حرقُ المعتقَل بأعقاب السجائر، وتعريضُه للصدمات الكهربائية، والضغطُ على خصيتَيه، وضربُ رأسِه بالحائط، وخنقُه بالماء، وهزُّه بسرعةٍ كبيرة، ما يؤدّي إلى ارتجاجٍ في دماغه. هذا فضلاً عن حرمانه من النوم أو الطَعام أو الاستحمام لفتراتٍ طويلة، ومنعِه أحياناً من الزيارات العائليّة، ومن رؤيةِ محاميه، ومن قضاءِ حاجته.

أيّها الحاضرون،

لقد بلغ عددُ الأسرى في السجون الإسرائيليّة، الشهرَ الماضي، سبعةَ آلافِ أسير، بينهم 438 طفلاً (98 منهم تحت 16 عاماً)، و68 أنثى، و6 أعضاء من المجلس التشريعيّ. وهناك 170 أسيراً استُشهدوا تحت التعذيب بين عامَيْ 2013 و2015، فضلاً عن 458 أسيراً محكومين مدى الحياة. والحال أنّ شركة G4S، التي يتعاقد معها فندقُ كراون بلازا وعشراتُ المؤسّسات الأخرى في لبنان، تقدّم أنظمةَ حمايةٍ لسجون «كيتزيوت» و«ميجيدو» و«دامون»، حيث يقبع آلافُ السجناء العرب. وتقدّم مُعَداتٍ لسجن «عوفر» في الضفّة الغربيّة، ولمركزَي الاعتقال «كيشون» و«المسكوبيّة»، حيث يتعرّض السجناءُ، وضمنَهم أطفالٌ، لحالات تعذيبٍ موثّقة. ونتيجة لذلك، قرّر البرلمانُ الأوروبيُّ في نيسان 2012 عدمَ تجديد عقدِه مع G4S لحماية مبانيه في بروكسل؛ وسَحَبَ صندوقُ بيل غيتس في ذلك التاريخ استثماراتِه منها، وتقدّر بـ 170 مليون دولار؛ وأنهى حزبُ العمّال البريطانيّ في نوفمبر 2015 عقدَه معها على خلفيّة انتهاكها لحقوق الإنسان؛ وكذلك فعلتْ كلٌّ من المفوضية العليا للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين (UNHCR) في الأردن نهاية العام الماضي، واليونيسيف في الأردن بداية الشهر الماضي.

أيتها الأخوات، أيّها الإخوة

G4S، إذاً، مسؤولةٌ بشكلٍ مباشرٍ عن الظروف القاسية التي يعانيها الأسرى الفلسطينيون (وضمنهم أطفال)، ومتواطئةٌ مع السلطات الإسرائيليّة في اعتقال نوّاب من المجلس التشريعيّ الفلسطيني منذ سنة 2006. وقفتُنا هنا ليست دعماً لأسرانا الأبطال وأسيراتنا البطلات فحسب، بل هي أيضاً احتجاجٌ على هذا التواطؤ بين الشركة المذكورة وقواتِ الأمن الإسرائيلية.

أما لماذا اخترنا هذا الفندقَ بالتحديد فلأنّه متعاقدٌ مع هذه الشركة، شأن عددٍ آخرَ من المؤسسات في لبنان. وقد قمنا قبل أيّام بوقفة احتجاجيةٍ أمام منظّمة اليونيسيف في مبنى الجفينور، وسنقوم في الأسابيع القادمة بوقفاتٍ مماثلةٍ أمام مؤسساتٍ أخرى، وعلى رأسها مصرفُ لبنان والبنكُ العربيّ ومجمّع الدون.

أيّها الأحبّة،

هذه المؤسساتُ جميعُها، وضمنها فندقُ كراون بلازا، تعْرف كلَّ هذه المعلومات جيّداً؛ فلقد أرسلناها إليها غيرَ مرّة، عبر البريد الإلكترونيّ والفاكس والبريد المسجّل. لكنّها اختارت أن «تطنّش». إنّ تطنيشَكِ أيّتها المؤسّسات المذكورة تواطؤٌ مخجل مع G4S، المتواطئةِ بدورها مع المؤسسةِ الأمنيّة الإسرائيلية. أيرضيكِ أن تُتّهَمي بالتواطؤ مع شركةٍ ثَبَتَ عليها تسهيلُ أعمال الأسْر والتعذيبِ وانتهاكِ حقوق الإنسان وانتهاكِ القانونِ الدوليّ؟ أيرضيكَ أيّها الفندقُ أن تحميَ زبائنَكَ بشَركةٍ تقدّم أجهزةَ حمايةٍ وأمنٍ لسجونٍ ومعتقلاتٍ تعذّب الأطفالَ وتقتل الأسرى؟!

أيّها الكرام

في يوم الأسير الفلسطينيّ، ندعو كل أصحابِ الضمائر الحيّة إلى عدم الاكتفاء بتوجيه التحيّات إلى الأسرى، بل إلى أن يتّخذوا أيضاً موقفاً عمليّاً واضحاً بوقف التعاقد مع شركة G4S ومع كلِّ شركةٍ تستفيدُ من الاحتلال أو تتواطأ معه. وندعو اليوم تحديداً إدارةَ فندق كراون بلازا إلى فسخ عقدِها معها في أقربِ فرصةٍ ممكنة، وفي أسوإ الأحوال إلى إعلام شركة G4S وإعلامِنا أيضاً، اليومَ قبل الغد، بعدم تجديد عقدِها مع هذه الشركة حين ينتهي. وندعو إدارةَ الفندق، وكل المؤسّسات المتعاملة مع هذه الشركة، إلى عدم تصديق وعدِ G4S بالتوقّف عن العمل مع السجون والمعتقلات الإسرائيليّة؛ فقد سبق أن قدّمت الوعودَ تلو الوعود منذ سنة 2002، وبرهنتْ أنها شركةٌ تدمن الكذبَ والخداعَ.

في يوم الأسير الفلسطيني، عهدُنا أن نبقى أوفياءَ لفلسطين، وأن نبقى وراء العدوّ وداعميه في كلّ مكان.

والسلام.

(كلمة حملة مقاطعة داعمي «إسرائيل» في يوم الأسير الفلسطيني (2016/4/17) بيروت، من أمام فندق كراون بلازا، المتعاقد مع شركة G4S المتواطئة مع الأجهزة الأمنية الإسرائيلية)